الـــروايـــة العـــربيـــة والـــوعي الـتـــاريخي

فاطمة المحسن

يبدو العرب اليوم وكأنهم يعيشون التاريخ تجربة يومية، فهم في قلب الاحداث الكبرى: حروب وإرهاب واحتلال، وتشكل دول وسقوطها. اي ان الناس يجدون أنفسهم على مقربة من التاريخ، أو أن التاريخ بوقائعه المتسارعة يعيد تشكيل حياتهم على نحو غير مسبوق. وهناك مايدفع الى الإعتقاد بأن ظروفا مثل هذه قادرة على التسريع في صياغة مايسمى الوعي التاريخي عند الشريحة المثقفة في الاقل وبينهم كتاب الرواية. والوعي التاريخي كما يشير بعض المنظرين، أهم شرط من شروط كتابة الرواية التاريخية، فهو يعكس التطور المنطقي للفكر في إدراكه العملية التاريخية ذاتها وتدرجها او صيرورتها في الزمن.

عبد الرحمن منيف

وملاحظة الاختلاف بين شروط الرواية التاريخية في الادب الغربي المعاصر وشروطها في الادب العربي، تمكننا من الظن بان معالجة التاريخ في الرواية او كتابة الرواية التاريخية ترافق في العادة نوع المعرفة بالتاريخ التي تظهر من خلال تطور العلوم الاجتماعية عموما والفلسفة والانثربولوجيا وعلم التاريخ على وجه الخصوص.فالرواية التاريخية الغربية اليوم لم تعد تشابه رواية الماضي من حيث الخطاب وتكوين الشخصيات وفهم الزمن، انها اليوم خليط من الاسطورة والخيال العلمي،وهي تناص مع المرويات التاريخية، واقتراب من الوقائع التاريخية وجنوح عنها. ويعود هذا الامر الى تطور مفاهيم التاريخ نفسه او أدوات الوعي به، فالتاريخ كان يفهم في القرن التاسع عشر مثلا على انه غائي، تتجلى فيه عروض الروح في توقها الى الحرية كما عند هيغل، اوحركة تقود البشر الى الخروج من عالم الضرورة كما عند ماركس. انه الان يعالج مشكلة المعرفة ذاتها، فلا توجد ذات تأملية تصوغ فرضياتها وتستريح الى تطبيقها على المجتمعات، بل هناك متوالية لامتناهية للمعرفة التاريخية تعمد الى التحليل اللغوي، وتكتشف موضوعها عبر قوة التخيل والتقصي في الذاكرة البشرية، وهي تتجاوز مكبوتاتها التي صاغتها غرضية العلم.

اكتشاف الكتّاب العرب تاريخهم، كما هو مكرر في البحوث العربية الحديثة، تكتنفه الكثير من الصعوبات، ومن تلك الصعوبات، علاقتهم بالزمان والمكان حيث يحول اللاهوت دون إدراكها على نحو علمي، اي ان وعيهم التاريخي ينقصه الكثير من المحددات العلمية.

وعلى وفق المنطق الفني، يمكن الزعمُ بان تلك "النواقص" التي نضعها بين مزدوجين،هي التي بمقدورها العمل في حقل جديد واصيل ويملك الطابع المحلي للرواية. فالمعرفة التاريخية عند العرب القدامى ترتبط بفن القص او الخيال القصصي، كما الحال في اليونان، لان" أيام العرب"التي تشكل مدوناتهم التاريخية، هي في الاصل ملاحم تجمع الاساطير الى الدراما الى المرويات والفانتازيا والغياب والحضور للأزمنة الحقيقية والمتخيلة. هذه التقاليد الابداعية التي زُعم انها أعاقت العرب عن بلوغ وعيهم التاريخي، بقيت بعيدةً عن الذاكرة الروائية العربية مدة طويلة، ومن سوء حظهم ان استعادتها الان تجابه صعوبات في العلاقة مع أدوات الفن ذاتها، فأكثر المتورطين بهذا النوع من القص يصعب عليهم إزالة التغريب عن اللغة التراثية ومرجعيتها السوسيولوجية.

الاعاقة في كتابة الرواية التاريخية والرواية عموما، توضحت في اكتشاف العرب هذا الفن بعد الدخول الكولونيالي الى بلدانهم، وتشكل الدول الوطنية، ومشكلة التقليد لأساليب القص الغربي أبعدت الرواية عن إمكانية استثمار تراث القص العربي على نحو يضعها امام إمكانية تمثل الهوية فنيا، فتمت الاستعاضة عن هذا النقص في منطوق الرواية،حتى غدت ايديولوجيا المضطهد (بفتح الهاء) محركا أساسيا من محركات هذا النوع من الكتابة.

العرب والحالة هذه لأول مرة يتجاوزون قلق عصر النهضة الذي كان يعلن من دون مواربة إعجابه بالغرب ومنجزه ومحاولة الانتماء اليه او اللحاق بركبه. في حين تشكل وعي الرواية التاريخية الحديثة بمعناها الفني في عصر يرفض تلك التسويات،والمثقفون الجدد بتخليهم عن النظرة المتفائلة لرواد النهضة الاوائل، وقعوا في اشكالية فكرية انسحبت على الاعمال الابداعية ذاتها.

ولعل رواية عبد الرحمن منيف "مدن الملح"، وهي أبرز رواية تاريخية حديثة،تشخص نموذجا لهذه الاشكالية،فهي تستخدم أدوات الرواية الغربية الكلاسيكية، كي تصل الى خطاب ينقض مفهوم التحديث الغربي.

منيف عبر روايته لاينظر الى فكرة التطور التي دخلت الجزيرة العربية إلا على محمل الحنين الى ماضي البراءة الاولى، من دون ان يجد في تناقضات التقبل او الرفض ما يساعد على تعزيز جدل الصراع في روايته.

الماضي الذي يرثيه منيف تمثله شخصيةٌ مقطوعة عن ارث الاعاقة، كما تصور الرواية، في حين تمثل هذه الشخصية في الواقع قيم القبلية التي حاول الغرب تهجينها، عبر فكرة التوحيد والاستقرار وبناء المدن ودخول اساليب جديدة للحياة، وهي فكرة ينظر اليها الروائي على انها تجاوز على الهوية المحلية.

صراع النفط او الصراع السياسي في رواية منيف يهمش صراع الماضي والحاضر، فالجزيرة العربية قلعة الاسلام تتحدد مشكلتها منذ البداية في حرب قادتها القبيلة كي تستحوذ على الدين وتدمجه في قيمها، وكانت هشاشةُ التحديث تقوم على التوتر بين أدوات التغيير ومفهوم التغيير نفسه. وقد أهمل منيف هذا الجانب او جرده من قيمة الكشف او السبر التي تضعنا أمام مشكلات المستقبل، كما هي الحال في الرواية الكلاسيكية الغربية. لعل القيم القبلية كانت وراء النجاحات التي حققها الاسلام السياسي في العقود الاخيرة، حيث جعل من الاسلام هوية واحدة، لا هويات متنوعة لقوميات وشعوب مختلفة. هذا الملعب الرحب ظهر في الرواية متواريا خلف الحرب على موارد النفط والحداثة المشوهة.

بمفهوم النقد المؤدلج تبدو رواية "مدن الملح" روايةً رجعية، فهي لاتنظر الى فكرة التطور على نحو إيجابي، ولكنها في الجانب الفني تمثل حالة الاقتراب بل التماهي بين وعي الكاتب ووعي الشخصية الرئيسة "متعب الهذال" التي يحاول ان يزين لقارئه صدق نواياها وأصالتها، مقابلَ زيف التحولات التي تشهدها الجزيرة العربية.انها إحتجاج رومانتيكي على قباحة الحاضر السياسي،غير أنها لم تطل التركيبةَ المعقدة لما يسمى الذات الوطنية،التي تشكل القبليةُ أهم معالمها.لاتقتصر رواية منيف بالطبع على هذا الجانب، فهي تشير الى علاقة مجتمع المهاجرين مع التطورات التي يشهدها المجتمع السعودي، وتبدلات السلطة، وهو يقدم مبحثا انثربولوجيا في غاية الاهمية.

والحال ان ليس بالمقدور محاسبة الكاتب عن مصادر وعيه التاريخ في كتابة روايته، ولكن هذا الامر بتصورنا يفضي الى تقريب النقاش من التقاليد الفنية لكتابة الرواية التاريخية، فهي تبدو وكأنها تعكس تدرج فهم الذات الوطنية عبر الفن القصصي.

تخطى الروائيون العرب مع عبد الرحمن منيف حاجز تمجيد الماضي ولكنهم ظلوا أسيري فكرة الصراع مع الغرب الذي اصبح منذ بدايات المحاولات الاولى للمسيحيين وفي المقدمة منهم جورجي زيدان عنوان الصراع بين الاديان السماوية. فتاريخ الفتح الاسلامي لمصر تلبس عند زيدان في روايته "أرمانوسة المصرية" محاكاة لمفهوم الوطنية المصرية الجديدة،ولكن هذا العمل تعرض الى طعون النقد التي رأت في مادته قصورا عن تصوير الجوانب المشرقة الحماسية للشخصيات الاسلامية حسبما يجسدها الوعي الوطني لمرحلة أتت بعد مرحلة زيدان.وهو شأنه شأن التنويريين المسيحيين كان يحاول التوفيق بين مادته التبشيرية والجوانب السلبية لمشكلة البطل الفاتح الاسلامي او الغازي. فقد وجد في الخلاف بين المذاهب المسيحية ما يمكّنه من إدراج مفهوم الوطنية ضمن حاضنة المكان بصرف النظر عن الاختلافات في الدين،على هذا غدا الاقباط في قبولهم الفتح الاسلامي يعبرون عن مصالحهم الوطنية.

وأيا كانت درجة الحقيقة او الزيف في هذه المعلومة التاريخية، فهي تمثل خطابا روائيا قاد فيه المسيحيون فكرة التغيير بمفهومها الغربي البراغماتي. غير ان الاهم،كما نتخيل، ان النقد الذي استهدف كاتب الرواية كان يصوغ تصورا عن الذات الوطنية يرتبط بتقديس الماضي، اي يعود الى الوعي البدائي لمفهوم التاريخ، الامر الذي دفع الكثير من الكتاب الذين لحقوه الى تمثل هذا المفهوم في كتابتهم الرواية التاريخية. ويصور النقّاد في معرض نقدهم، عجز زيدان عن تجسيد فكرة الجهاد على نحو ماجسدها التراث الروائي الذي أتى بعده، وروايات علي أحمد باكثير التي استحقت مديحا وبينها "القادسية" و "اسلاماه" والكثير من الروايات التي تشابهها وكانت ترى في الجهاد الاسلامي تمثلا للروح الوطني.

فكرة النظر الى التاريخ على نحو مؤدلج، هي نوع من الوعي به، وهذه الفكرة تقترب من الجماهير كلما نأت بنفسها عن التورط في البحث عن الوجه الاشكالي للذات الوطنية، وعندما يعبر العرب ضفة عبادة الاسلاف، سيكون بمقدور رواياتهم النظر الى الذات الوطنية من دون خوف، وهذا هو الملعب الرحب لكل أنواع التعبير.

---

*ألقيت هذه الكلمة في مؤتمر الرواية والتاريخ في القاهرة ٢٦شباط - ٢ آذار ٢٠٠٥ .

آخر عـذابـات العـراقيـين

معـــرض تـــشـكـيلي للفنـــان عـبـــد الـكـــريـم خلـيـل

علي مندلاوي

"فضاء وفن" قاعة عرض، ومشغل جرافيكي، ومنتدى ثقافي أفتتح أخيراً في حي الوزيرية بعرض بصري مفاهيمي لمؤسس المشروع ومديره الفنان "سلام عمر"، وقراءات شعرية للسياب من أداء الفنان القدير "عزيز خيون".

حفل الافتتاح كان لافتاً بطريقة العرض، والأداء المميز للفنان خيون، وبالحشد النوعي للحاضرين.

العرض الثاني للفضاء جاء تحت لافتة "عذابات على القماش" للفنان عبد الكريم خليل (بغداد - ١٩٦٠).

المعرض يحمل الرقم (٣) ضمن المعارض الشخصية للفنان.

أنهى خليل دراسته الأكاديمية في بغداد عام (١٩٨٧)، وأقام أول معارضه على قاعة (بغداد) عام (١٩٩٦)، وحمل المعرض عنوان "عذابات على المرمر".

وبين العذابات التي حفرها الفنان خليل على المرمر، وتلك التي سجلها على القماش، وبين الزمنين شارك الفنان في معارض في قاعات ومتاحف بغداد، روما، عمان، تونس، بيروت ودبي.

توسطت لوحات خليل المعلقة على جدران القاعة أعمال نحتية نفذها الفنان بمواد مختلفة غلب عليها الحجر والبرونز.

موضوعات "الاحتلال"، "المقاومة"، و"الاعتقال" كانت محور النماذج النحتية التي تميزت بأحجامها الصغيرة، وبقوة تعبيرها عن موضوعاتها.

وبهذا يؤكد الفنان التصاقه بالنحت، وقدرته على استنطاق المعدن والحجر للاحتجاج على لا إنسانية المحتل، ومشروعية مقاومته، ويؤكد أيضاً تعلقه (الفنان) بحبه الأول للأعمال ذات الأبعاد الثلاثية لتجسيد عذاباته.

وعلى الضد من غالبية الفنانين العراقيين على اختلاف أجيالهم (رواد، ستينيين، ثمانيين) الذين تراوحت أساليبهم في الرسم بين الانطباعية، والتعبيرية، والتعبيرية التجريدية، والتجريد يقف خليل على مسافة ليست ببعيدة عن جرأة أستاذه الراحل الفنان "إسماعيل فتاح الترك" في البقاء في منطقة الرسم والنحت التشخيصيين.

وفي حين حرص "الترك" في أعماله الفنية المتنوعة على إضفاء طابع (ايقوني) على شخصياته المرسومة والمنحوتة عمل خليل على ربطها، وبحيوية بمجريات الأحداث في الحياة اليومية العراقية تحديداً.

وعلى الرغم من اتفاق الفنانين على اعتناق التشخيصية يذكر الفنان عبد الكريم خليل أن الفنان الترك تساءل ذات يوم قائلاً:

- "ألا ترى بأن هناك أزمة تشخيص في الفن العراقي؟!!"

إلا أن المعالجات التي اشتغل عليها الترك سواء على سطوح لوحاته، أو على هيئة منحوتاته وقفت على الضد من معالجات خليل التي تعطي أحساساً ببدائية تناقض هندسة بناء أجساد شخوصه، وتكوينها في فضاء اللوحة.

فالترك وبحرفيته العالية، وامتلاكه لحرية عارمة في اللعب والعبث المنظمين، عمل ومن خلال رسمه لموضوعات وشخصيات بملامح غير محددة بزمان أو مكان على إنتاج أعمال فنية تمتلك صفات غير محددة بهوية أو جغرافيا معينة (محلية).

عينان، أنف، فم تتوزع على مساحة لون فاقعة (ساخنة على الأغلب)، وإطار من طبقات لونية مرسومة بمزاج فرشاة عابثة كانت تزحف (في الغالب) على الإطار المحيط باللوحة، وعليها تتراقص نقاط على شكل دوائر كبيرة غير منظمة كان الترك كما يبدو لي يختم بها دراما لوحته.

الترك كما أفهمه كان متفرداً في تشخيصيته، تعبيرياً في لوحاته ومنحوتاته، كما أنها لم تكن تخلو من ملامح رمزية.

الأسود كتلة برونز بشرية عبث الترك بطفولية نادرة بمزاجها المعدني من خلال حزمة ألوان بهيجة وزعها متداخلة، متراقصة في أجزاء من جسد منحوتاته الجالسة والمنتصبة.

الأسود يملأ أجساد شخصيات غير سوداء في لوحات خليل.

حزمة الألوان البهيجة يتلاعب بها خليل بفطرة فنان يحاول التعبير عن فرحته بالرسم، فيحرك فرشاته، وكأنه لم يزل حديث العهد بها، ولكن اللوحة بمجملها تواجه المشاهد بقدرة مميزة في التعبير، وفي التنفيذ.

لوحات عبد الكريم خليل تشخيصية، تعبيرية تقترب من الستيني المحدث إسماعيل فتاح الترك، وتفترق عن أطروحة الثمانينيين بالاختلاف عن نهجهم المقارب لطروحات الخمسيني المعاصر شاكر حسن آل سعيد.

في دليل معرضه يقول خليل: "كنت أظن أن الفلك إذا دار سينظر إلى أني بطل".

دار الفلك، ومرت الأيام، ولم يسأل أحد عن البطل المزعوم، ولكن كنت أسمع من صنع ذلك الطوطم، من عمل هذا الطوطم.

وعادت الطواطم، وعادوا ليصنعوها، أما أنا فبقيت أنحت عذاباتي على المرمر إلا أن الحجر لم يستوعب عذاباتي، فرحت أصورها على القماش".

الدورة الـ ١٥ لمعرض (أبو ظبي الدولي للكتاب)

كتب تبحث عن قارئ مجهول.. وناشرون يبحثون عن تصريف (بضاعتهم) !

شاكر نوري

تحت خيمة بيضاء واسعة - زادت مساحتها بمائة متر مربع هذا العام - في حدائق مبني المجمع الثقافي في أبو ظبي، ازدحمت نحو ٥٢٠ دار نشر عربية وأجنبية، وهي تعرض ما يزيد على ٢٥٠ ألف عنوان عربي و ١١٠ آلاف عنوان أجنبي. هذه الكتب تتراوح بين الكتب التقليدية والكتب الحداثية إلا أن الأولى تسيطر بشكل طاغ على أروقة المعرض حيث باتت دور النشر تستجيب لرغبات القارئ الأولية ولقانون الربح السريع. على أية حال، إن عافية الكتاب العربي تبدو في حالة جيدة ظاهريا إلا أنها في العمق تعاني من أمراض مزمنة، يتصدرها غياب القارئ العربي الذي لم يتربَ على عادة الكتابة في طفولته ولم يكتسبها في نضجه عن طريق العدوى من الشعوب الأخرى. أروقة المعرض تجعلك تتجول في متاهة من الكتب، تغلب عليها زركشة أغلفة الكتب التراثية التي راحت دور النشر العربية تتسابق في اصدراها بعيدا عن أي تخطيط علمي أو منهجي. وعلى الرغم من هذه العلة المستأصلة في واقع النشر العربي إلا أن مشاركة دور النشر العربية تبدو ضخمة بالمقارنة مع بدايات فكرة إقامة هذا المعرض الذي افتتحه المغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان في المبنى ذاته عام ١٩٨١, وقد حرص سمو الشيخ نهيان بن مبارك آل نهيان، وزير التربية والتعليم، على أن يفتتح المعرض بصحبة وزيرة الثقافة الجزائرية خليدة تومي التي جاءت خصيصا للمشاركة في هذه التظاهرة الثقافية، وتأسفت كما أكدت لنا، لعدم مشاركة دور النشر المغاربية - المغرب، الجزائر، تونس، ليبيا وموريتانيا - في هذا المعرض وأعد هذا الغياب مجسداً حالة الغيبوبة التي يمر بها الكتاب العربي المغاربي. لكنها تداركت قولها هذا، مضيفة لنا بأن وزارتها تنوي التخطيط لحث دور النشر الجزائرية على المشاركة في هذا المعرض خلال الأعوام القادمة.

ولعل ما يميز معرض أبو ظبي الدولي للكتاب هو استمراريته - وهذا ما يمنحه مكانة مرموقة بين معارض الكتب العربية - طيلة خمسة عشر عاما إذ لم يتوقف إلا في عام ٢٠٠٣ بسبب الحرب على العراق ليستأنف نشاطه فيما بعد كالمعتاد، منتظما في الموعد ذاته. هذا الموعد الذي تحول إلى لقاء ثقافي يجمع في أجنحته العديد من النشاطات الثقافية أبرزها: محاضرة لصالح علماني مع حفل توقيع بعض كتبه المترجمة، أمسية شعرية للشاعرين عبد الرحمن الأبنودي ومظفر النواب، وندوات حول الرواية والثقافية الإلكترونية ومشروع ارتياد الآفاق فضلاً عن عروض مسرحية وسينمائية وثائقية وغنائية متنوعة.

الطموح الإماراتي في تنمية دور الكتاب كبير للغاية وهذا ما عبر عنه أحمد محمد السويدي، أمين عام المجمع الثقافي، المشرف العام على هذا المعرض بقوله " إنه عرس سنوي، وتظاهرة ثقافية تقرب الجمهور مع الكلمة المكتوبة، وتصل حبل الود بين الناشر والقارئ، وتجعل اكثر لغات الشعوب تداولا تجتمع في خيمة واحدة، وتحت سقف واحد ". لكن " حبل الود " هذا لم يصل بين الناشر والمؤلف إذ أن غالبية دور النشر مازالت مصرة على " قرصنة " حقوق الكاتب العربي والأجنبي على حد سواء. فالمؤلف لا يتسلم أية مردودات عن نشر كتبه بل وصل إلى حالة من الإحباط المميت بحيث أنه لا يترجى سوى نشر كتبه. أما الكتب الأجنبية فتتم "قرصنتها" من قبل معظم دور النشر العربية من دون أي وازع أخلاقي .

الملاحظ أن غالبية دور النشر العربية شاركت في هذا المعرض في دورته الحالية، مستفيدة من المكان المجاني الذي توفره لها إدارة المعرض، وهذا ما لا يقدمه، على سبيل المثال لا الحصر، معرض الشارقة. وقد تشكى لنا أحد الناشرين مؤكدا بان هذه التكاليف تحد من نشاطات الدور التي مازالت تعاني من قلة إقبال القارئ على الكتاب في عصر الانترنيت والفضائيات، وهذه حجة لا تستند إلى أية معطيات علمية ذلك لأن القارئ العربي كان غائبا عن الكتاب قبل ظهور التقنيات الحديثة التي لم يتعلم منها سوى فقاعاتها السطحية. ولكن على الرغم من كل هذه المعوقات فان دور النشر مستمرة في إنتاج " البضاعة " على حد قول أحد الناشرين العرب، وتقوم بجولات " مكوكية " في حضور معارض الكتب التي أصبحت سوقها الرئيسية إذا لم نقل سوقها الوحيدة بل بوابتها الوحيدة المفتوحة.

لا بد من الإشارة في نهاية المطاف، إلى أن دولة الإمارات العربية المتحدة تعمل جادة على تطوير الكتاب وتنمية القراءة وعلى الخصوص بين أوساط النشئ، الجديد والأجيال الشابة. وهذا ما تؤكده الأسعار المنخفضة للكتب المطبوعة في غالبية المؤسسات الثقافية الإماراتية وعلى الخصوص إصدارات المجمع الثقافي ومركز الإمارات للدراسات الإستراتيجية اللتين تعدان من أكثر دور النشر غزارة في إنتاج الكتب وتصنيعها. ولكن يبقى أن نقول أن هذه الكتب المكدسة بين أروقة المعرض تبحث عن قارئ مجهول.. فيما يبحث الناشرون عن تصريف " بضاعتهم" !